

مدرسة التاريخ



﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عَبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَنَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الْمَذْيَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف / 111).

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الْمَذْيَنَ طَلَامُواً أَنفُسَهُمْ وَتَبَّاعَيْنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلَنَّا بِهِمْ وَضَرَبَنَّا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) (إبراهيم / 45).

(لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكِيرَةً وَتَعْبَرَهَا أُذُنُّ وَأَعْيَةً) (الحاقة / 12).

ويتحدث القرآن عن تجارب الشعوب والأمم، ومسيرة التاريخ، وحوادث الماضي، خيرها وشرها ليتلقف الأجيال، ولি�تخد من التاريخ مُعلماً ومدرسة وخبرة إنسانية فاعلة. يتحدث له عن الهدى والضلال وعن الصراع الفكري والعقيدي بين الأنبياء (ع) وبين الطواغيت وال مجرمين، ويتحدث عن تسلط الطواغيت والإرهاب ويتحدث عن خيرات الطبيعة وظروف المعيشة والاقتصاد، وما فيها من رخاء ونعمه واستقرار، ومن

ضيق وعسر ويتحدث عن الظلم والاستكبار والمستضعفين ويتحدث عن كوارث الطبيعة وآثرها في حياة الإنسان.

ويتحدث عن السُّنن والقوانين التي تحكم في مسيرة الحوادث والواقع، ليتحقق الإنسان ويوضح له أن "حركة التاريخ والمجتمع تجري وفق قوانين وسفن، وليس حركة عشوائية.

إن" هذه القوانين والسنن تنطبق على إنجاز الدول والحضارات وسقوط الأمم وتدورها، كما تنطبق على رقيها وتقدمها، فكل" أحداث التاريخ وحركة المجتمع، سواء التصاعدية المتطورة منها، أو الحركة التنازلية نحو السقوط والتدهور والانهيار.. إنما تجري وفق قوانين وسفن إلهية، وبعبارة أخرى كما تنطبق قوانين العلية والسببية في عالم الطبيعة، كما في قوانين الفيزياء والكيمياء وعالم الأحياء، فكلما وجد السبب وتوفرت الشروط والظروف الالزمة والمتماثلة أعطت نتائج متماثلة وفي أي زمان ومكان.. فإنها تجري على وقائع المجتمع والتاريخ الإنساني وحدهما، فكل" حركة التاريخ والمجتمع تجري وفق قوانين وسفن، وإن" تكرر تلك العلل والأسباب أو الظروف ينتج عنه تكرر الوضع الاجتماعي والتاريخي نفسه، وينبغي أن نوضح هنا إن" الفارق بين حوادث الطبيعة، سواء الطبيعية أو المختبرية تجري بصورة قسرية، أما في عالم الإنسان والمجتمع فتجري الواقع والحوادث بصورة اختيارية فالإنسان حر مختار وهو الذي يدفع نفسه تحت طائلة القانون التاريخي فيفقد اختياره باختياره.

لذا نجد القرآن يحذر من تكرار الأوصاع التاريخية التي مارسها الطغاة والمفسدون وال مجرمون والطالمون، وقادة الكفر والجاهليه والضلال لئلا يحل بالأجيال المتلقية لهذا التحذير والتنبيه ما حل بالماضي من كوارث وخراب ودمار، ذلك ما نقرأه في قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عَبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَذَرُونَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
وَلَكِنْ تَسْمِدُهُنَّ الْأَذْنِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف/ 111).

عبرة وموعظة ودرس لأصحاب العقول الذين يعون فلسفة التاريخ، وتجربة الماضي، ودلالة الحدث مفسراً بعده وأسباب حدوثه، وتجسد آثاره ونتائجـهـ.

والقرآن يتحدث عن طواغيت الأرض والمفسدين فيها، وعن المصير الذي حل بهم، ويحذر من تكرار المشهد والسلوك الطاغوتـيـ والتسلطيـيـ، وكثيراً ما يركـزـ القرآن على الطـاهـرةـ الفـرعـونـيةـ باعتبارـهاـ اسوأـ

مظاهر الظلم والطغيان والفساد.

نقرأ هذا البيان في خطابه تعالى للنبي موسى (ع): (إذْ هَبَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) (طه / 24).

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ إِلَيْهِنَّ طَغَوْا فِي الْبَلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَهَبَبْ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابِ) (الفجر / 10-13).

ثم يتحدث عن صورة من صور هذا الطغيان والاستبداد والتكبر الذي عبّر عنه فرعون ب موقفه و قوله:

(فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لِمَن يَخْشَى) (النازعات / 23-26).

وهكذا يلفت القرآن الأنطارات، ويوجّه العقول للعبرة والموعظة، ويدعو لاستفادة التجربة ووعي الماضي: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لِمَن يَخْشَى) (النازعات / 26).

والقرآن يوضح أنّ هناك قوانين وسننًا إلهية، كما أسلفنا، تجري وفقها حوادث التاريخ، وأوضاع المجتمع البشري.. نقرأ هذه البيانات في قوله تعالى: (سُنْنَةُ اللَّهِ الْأَمْرِي فَدُخْلَتْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَمَن تَجَدَ لِسُنْنَةِ اللَّهِ تَبَدَّلَ يَلَا) (الفتح / 23).

(فَدُخْلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنْنَنُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيْانٌ لِلْمُنَذَّرِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُنْذَرِينَ) (آل عمران / 137-138).

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ زَدِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ زَدِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا زُفُورًا اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُرَ السَّيِّئَاتِ وَلَا يَحْسِنُ الْمَكْرُرُ السَّيِّئَاتُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنْنَاتِ الْأَوَّلِينَ فَلَمَن تَجَدَ لِسُنْنَاتِ اللَّهِ تَبَدَّلَ يَلَا وَلَمَن تَجَدَ لِسُنْنَاتِ اللَّهِ تَبَدَّلَ يَلَا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَبَيْنَظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدُهُمْ قُوَّةً وَمَا

كَانَ اللَّهُمَّ لِيْلَهُجَنَّزَهُ مِنْ شَبَّهٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمَا قَدِيرًا) (فاطر/ 42-44).

ومن سنن الله تعالى وقوانين التغيير الاجتماعي ما جاء في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11).

وهكذا يعرض القرآن تعريفاً واضحاً للإنسان، ويوضح أنّ ما جرى في الماضي قد جرى وفق سنن وقوانين انبثقت لأسباب ومحاذيات، وذكر من هذه الأسباب الظلم والطغيان والكفر والاستكبار والفساد والظلم والجريمة، وأنّ أي مجتمع تكثر فيه هذه الظواهر فسينطبق عليه القانون الإلهي، قانون العقاب والدمار والخراب.

وفي هذه الآيات، وفي آيات أخرى يدعو القرآن الإنسان إلى أن يسير في الأرض فينظر آثار الأمم والشعوب الماضية، ويرى ما حلّ بها من خراب ودمار؛ ليكون ما يشاهده درساً وموعظة فلا يكرر ما فعلوه؛ لئلا يحل بالحاضر ما حل بالماضيين.. نقرأ من هذه البيانات: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَالَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل/ 69).

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا طَامُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا مُّصَدِّقُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لَيُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ زَجَرِي الْفَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس/ 13).

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا زَحْنُ الْوَارثِينَ) (القصص/ 58).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الْمُتَّدِي فِي الصُّدُورِ) (الحج/ 46).

(ظَاهِرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذْيقَهُمْ بَعْضَ الْأَذْيَاءِ مَلِكُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَالَاقِبَةُ الْأَذْيَاءُ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ) (الروم/ 41-42).

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (السجدة/ 26).

وفي هذا السياق يتحدث القرآن عن الاستبدال عندما تنحرف مسيرة الإنسان عن جادة الصواب والهوى والإصلاح، واستبدال أمة مكان أمة وزعامة ورئاسة مكان رئاسة وزعامة، ذلك ما نقرأه في البينات الآتية:

(إِلَّا تَذَنْفَرُوا يُعَذَّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبِدَّ لَهُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة/ 39).

(هَا أَزْتَمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُذَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّ زَمَانًا يَبْخَلُ عَنْ زَفْسَهِ وَاللَّهُ أَلْغَانِي وَأَزْتَمْ الْفُقَرَاءِ وَإِنْ تَذَوَّلْ يَسْتَبِدَ لَهُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد/ 38).

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) (هود/ 57).

(فَقَدْ وَكَلَّنَا بِهَا قَوْمًا لَيُسُوا بِهَا بِكَا فِرَّينَ) (الأنعام/ 89).

وكما عرض القرآن نماذج من الشعوب والأمم والحكام الطغاة، وما لاقوا من دمار وعقاب، كذلك عرض نماذج أخرى من الذين أقاموا العدل واستقاموا وسلكوا السلوك السوي فعاشوا في ظل العدل والمحبة والسلام.

نسجل من هذه الآيات قوله تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَنْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَلَيْهِ الْأُمُورُ) (الحج/ 41).

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ إِلَّا ذِيَّنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَبِيعُهُكَذَنَ لَهُمْ دَيْنَهُمْ
إِلَّا ذِيَّ ارْتَهَى لَهُمْ وَلَبِيعُهُدَلَذَنَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ أَمْنَدَا يَعْبُدُونَهُ
بُشْرَكُونَ بِرِّي شَيْءًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور/ 55).

(وَزُرْبِيدُ أَنْ زَمْنَ عَلَى إِلَّا ذِيَّنَ اسْتُضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَزَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَزَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص/ 5).

(وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً بَاهِدُونَ بِأَمْرِ زَمَّا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة/ 24).

تلك مدرسة التاريخ، وتجربة الإنسان وموعظة القرآن (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق/ 37).